قصة قصيرة

الغريق

حسن الخياط

لا أحد يعلم كيف جاء للمدينة ، وأصبح في أيام قليلة حديث الناس . رجل طويل . لا شارع ولا زقاق لم يرتفع فيه صوته ، وهو يدفع عربته الممتلئة بقطع الكارتون والطابوق وقناني الغاز . في المساء ينزوي بسوق عتيقة ، معظم دكاكينها مهدمة ، الا من بعض الخياطين تقرقع فيه مكائنهم العتيقة وسط الرطوبة العفنة . ابتسامة صعبة تنزلق من شفتيه حين يناكده أحدهم . يستريح عند أبي في الساعة الاخيرة التي تسبق غلق الدكان . يكتفي الناس بمراقبته وهو يتجول دافعا عربته الثقيلة في تعرجات الارض ولزوجتها .

قلت : انه رجل غريب الاطوار هذا ..

رد أبي : ليس كذلك ... يعيش الحياة بهذه الطريقة .

انقطع أبي عن العمل بسبب مرضه . سلمني المفاتيح . قليل من المهنة أعرفه . أتقصد البقاء الى ما بعد موعد الاقفال . أراقبه وهو يتجاهلني . لكنه حين يتشاغل بعمله يحدجني بزاويتي عينيه . في مساء ما كانت صفرة رهيبة تغطي وجهه ، وبدا ارتعاش في ركبتيه . كان يتكيء على الحائط مغمض العينين . أدخلته الدكان . حاول أن يخرج ، لكني أجبرته على الجلوس .

بعد أن شرب الشاي . تنفس عميقا . وزفر : أكيد انك ابن الطيب . (هززت رأسي . كنت أفكر بالطريقة التي سأنفذ فيها اليه) .

صرخ : انها الحياة ... حاول أن لا تدعها تفلت من يديك .

كان يدفع دخان السيجارة بعيدا فوق رأسه : أتدري كم أحب النهر .. كل ليلة كنت أستحم .. الماء يجعلني مغسولا كاناء أبيض .

همست : كذلك أنا .. أحب الماء .

صرخ : أتعرف لماذا ؟!

ـ رائحته ... رائحته تذكرك بشخص !

علا صوته، وهو يدفع وجهه نحوي : شخص ؟!.. أجل شخص !

قلت : شخص عزيز .. تحبه وتفتقده على الشاطيء .

ـ كيف ؟

ـ كأن يغرق بلا سبب !

لم أستطع الفكاك من ذراعيه . احمرت عيناه ، وأدارهما لزاوية في الدكان . كان طرف لسانه يصعد ماسحا شاربيه الاصفرين، وارتبتا انفه تهتزان كخياشيم سمكة توشك أن تموت . فجأة نهض ، ومدّ لي كيسا : اعطه لابيك .. قل له انها من فرمان ..

انطلق سريعا ، قافزا لحوض العربة . بدأ أبي يحتضر . ظل يهذي بحكايات فرمان . يصرخ : مقطوع من الدنيا كنخلة الله ..

حين انام قليلا يطلع وجهه . يبدو كرجل يصنع الفرائب . يتلبّس ملامح أبي ، وملامح كثير من الناس الذين أعرفهم في المدينة . استيقظت وتحسست صمت البيت . كان صوت أبي لا زال يتهدج وسط العزلة الرهيبة لخدر انفاسي . سقطت ثانية في النوم . رأيت نهرا كبيرا بورقة الشذر . على شاطئه صبايا يغتسلن . طلع فرمان من وسط النهر مديدا . كانت قامته تطول حتى لامست الشمس . رفع كفّيه ، وبانت بين أصابعه أسماك تخرج منها رائحة الشواء . قفزت صبية شقراء، وسبحت باتجاه كعبيه اللذين كانا طالعين من الماء . فجأة انطلقت رصاصة خرمت ظهر الصبية . غاصت عميقا . صرخ فرمان وذاب جسده كعمود من الشمع . كانت أمي تهزني ، وصراخها يضرب اذني عبر هدير الحلم :

ـ أبوك !.. ابو .. ها .. ها ...

التابوت مرفوع على اذرع مختلفة : وصوت المنادي يصلني متعبا . ستة أضلاع من خشبة تحمل جسد أبي . أتطلع للوجود بانخطاف ، فلا أجد ما يثيرني في العيون التي تتطلع في المسافة المحصورة بين القدمين . أتخيل وجوه الموتى ؛ لكنها تزداد غموضا ، لتأخذ شكلا واحدا ، ربما يأخذ الكهول أشكال بجعات ، مثلما يأخذ الاطفال أشكال عصافير جميلة .

من تحت التابوت علا صوته بنحيب مؤس . ذراعا فرمان يندفعان للاعلى . يرتفع راسه نحونا . يبحّ صوته ويتقلص لحد الرنين . أشعر ان خبطات أصابعه على التابوت من جهة الرأس كضربات شفرة ، أترجمها وأنا أتذكر وصية أبي . كنت غير قادر على الاقتراب منه ، وسط عيون الناس المستفسرة عن هذا الباكي الطويل . مرّ أسبوعان وفرمان لم يظهر . اتجول في المدينة ، في السوق العتيقة ، لا أجد غير رماد مكوم وعلب صدئة ، وبقايا بصاق متجمد . ثمة شيء يثقلني، أحسّني به مدانا . علمت انه سكن الشاطىء . بنى كوخا من القصب ، واشترى زورقا . في الليل كنت أسمع صوته ، عبر وهج سيجارته . عانقني وقادني للداخل . رائحة نهرية تعبق ، مختلطة برائحة تنفذ للعينين قبل الانف ..

ـ بموت ابيك انتهت صلتي بالمهنة ... الآن احسّ نفسي طليقا .

ـ أية مهنة لك الآن ؟!

ـ أنقل الناس عبر الضفتين .. ولكن ذلك يثقلني .. أريد ان أعيش لصق الماء أكثر .

أحسست انه يثيرني ؛ أو يومىء لنقوده التي وضعها عند أبي . اختلج صوتي وأنا أضرب جيبي :

ـ سيكون ذلك بسيطا .. كل شيء يتدبر .. لكن أية مهنة أخرى ؟!

ـ سأشتري عدة الصيد .. تمنيت والدك حيا ليرى ما حدثته عنه .. ولكن ...

قاطعته صارخا : نقودك معي .. وسأشترك معك بالصيد .

ـ النقود !.. لا عليك بها .. ولكنك غير قادر على قسوة العملّ .

أخرج قنينة الخمر : اشرب !.. انك تذكرني به.. أشم رائحة الاشياء المفقودة بك !

أخذت جرعة الهبت بلعومي . كانت الخمرة قد نفذت لراسه . ملامحه اكتست بلون نحاسي شفاف . صرخ : أنا رجل تطارده اللعنة .. منحوس .. لكنني سأعيش كما ينبغي لفرمان أن يعيش .

انساب الزورق بنا . كانت ذراعاه تبدوان مكتسيتين بقوة منهارة . نزع ثيابه واندفع للنهر . ظهر قريبا مني ، لوّح بيده : آه ! اني أشمها في الماء .. أشمها تلك التي غرقت .

غطس لثوان ، عاد بعدها يقطع التموج بحركة دائرية من جسده .

حين صعد ، همس : من اللحظة هذه ستكون لصيقا بي .. يجب أن لا تغيب عني .. ذلك يوحشني.

في الليالي التي لا أراه فيها ، أجده بعدها منهارا، متوحشا . يتطلع اولا لعيني ، ثم يدير وجهه صوب الزورق . يهمس وهو ينظف الشبكة : لم اصطد الا القليل من السمك .. اول الليل أقضيه بالشرب .. كل حاجة تنتهي عندي حينما تغيب !

لم أقل شيئا . أنظر في عينيه . آثار الشرب تبدو بدكنة خفيفة تتوزع الاجفان . أمسك المجداف ، وأروح ملامسا سطح الماء بأصابعي . أشعر ان فرمان يبدو غريبا عندما يثمل ، أو يخيل لي انه يشبه الموتى . توغلنا في النهر ، وبدا الكوخ في الضوء الخافت كرجل يجلس القرفصاء . صوته يعلو بأغنيات يتذكرها بعفوية ...

ـ أتدري ؟ لم أنم البارحة .. شيء في النهر يدعوني .. لا أعرف ما يكون .. لكنني حين أغفو ، كان يطلع لي من الضفة ، ويسحبني اليه . وكنت أختنق حين الامس الماء . كان يصرخ : فرمان ! عليك بحياة أخرى .. هل تعرف ما يعني ذلك ؟!

أهزّ رأسي ، والظلمة تخفي وجهه الغائص بين كفّيه . ضوء الفانوس يشع بوهن ، وفرمان ينهض ، ناشرا الشبكة بين ذراعيه « هو .. هوب » وتروح الفتحات الخيطية تتسع في دائرة تقطع على الموجات اكتمالها . يتوقف المجداف في يدي ، وحركة الزورق تنقاد لمسار الحبل المتوتر بين أصابع فرمان .

احيانا ابات الليل معـــه ، متسللا عنـــد الفجر للبيت . كان يبدو بمزاج عكر . يأخـذ الماء بين كفّيه ، يستنشقه ثم يبكي . بعدها يركل الـــزورق صارخا : لا أريد لفرمان أن يربط نفسه كالبهيمة .. أريده سائحا مع النهر .. اتدري ؟ سيكون ذلك يـوما . سانطلق ، وأحمل معي ما أحتاج اليه.. وهكذا ساكون رجل الماء . اجل ! ساقهره .. اقهر الرجل الذي اكون ..

أحاول منعه من الافراط بالشرب ، فيخضع لي ، لكنه يخاتلني بطرق عرفتها بعد ذلك . كان يدفن القناني في الرمل الرطب ، أو يربطها بحبل ويرميها في النهر . كنا نسكر ، والفانوس يعطي ظلالنا اشكالا نتكيء عليها . ونغفـو .

الوجوه في المدينة تتطلع لي ، ورائحة النهر تعبق من جسدي ، وفرمان ينتظرني على الشاطيء مبكرا في الشرب . أتركه ينام في حوض الزورق ، واقوم أنـــا بالصيد ، مغنيا بعض الاغاني التي حفظتها منـــه . كان يهذي ، ضاربا عارضة الزورق بقبضتيه . أشرب مراقبا وجهه المسترخي في الشحوب . غبت ليلة عنـــه بسبب مرض أمي . في الصباح انطلقت اليـــــه . عندما لاح الشاطيء من بعيد اهتز جسدي ، وارتبكت خطواتي . على الرصيف المقابل للنهر ثمة أناس بينهم رجال شرطة. اندفعت للكوخ . على الرمل اثر جسد مسحوب. انطلقت عائدا . العربة يدفعها رجلان ، وجسد مغطـى بحصير عتيق . بحركة مهووسة ارتطمت ركبتاي بمقدمة العربة. صرخت . توقف الجميع . اقتربت من الجسد . كنت اهذي . اتلمس ملامحـه بكفيّ اللتين نشرتهما . اعض ياقة ثوبه ، واقبّله . كانوا يسحبوني ، وكنت اعـــارك بمشاعري التي فاضت حولي . رفضت أن يغطى وجهه، او يدفع العربة غيري . واكتفى الجميع بمراقبتي ، وانا اتطلع لجسده ، كانـــــه لم يمت . اصررت على تهيئة التابوت . كنت الوحيد الذي رافقتـــه بسيارة طـافت المدينة . في المكان الذي حلم به مات ، لكن جسده يتمدد الآن فوقي ، وانا ارحل به للمقبرة . تخيلت كيف يحفر القبر لجسد فرمان الطويل ، وكيف ينزل ملفوفا بقماش ابيض . افتح عينيه واحدق فيهما مودعا ، وحين يرتفع البناء الابيض اتحسس موضع قلبي ، وانا اقرأ شاهدة القبر : « هذا قبر المرحوم فرمان ابن.. » سأمنحه اسم ابي وجدي .. وسيكون لصيقا لقبر ابي . اعود بعدهـا لمدينتي . سأذهب في المســـــاء للشاطيء . من الرملَ الرطب اخرج قنـــاني الخمر واشرب .. أشرب لذكرى فرمان .. اتخيله طالعا من النهر مديدا ، مغطى بشبكة هائلة ، تتساقط منها أسماك كبيرة ، يناديني، وجسدي يزحف خدرا نحوه .

أحسّ براسي ينغمر في الماء . اختنق . احـاول رفع نفسي بذراعيّ . لكني كنت ثقيلا . اتراجع وقدماي تدفعاني أماما . تيقنت انني سأموت ، وتحســـت آخر انفاسي التي استجمعتها ، وصرخت ... عذوبة الفجر ايقظتني ، وانا أتلمّس جسدي . كنت متمددا في الماء ، غير ان راسي كان مرميا على الرمـــل . كنت ارتجف . رغم اني تشممت هواء الصيف الثقيل . حين نهضت ، تراخى جسدي ، واهتزّ نحو النهر . تطلعت لمكـــاني بعد أن دفعت الزورق بعيـــدا ، واندهشت لاثر جسد فرمان . صرخت بحدّة : اذن هكذا مات ... هكذا !..

العراق ـ ذي قار

صدر حديثا :

زوربا

الرواية الشهيرة لـ :

نيكوس كازانتزاكي

بعد غيابها طويلا عن السوق

ترجمـة جورج طرابيشي

•

الشك

الرواية الشهيرة لـ :

كولن ولسن

التي كانت تنقص مجموعته
الروائية الكاملة

صـدرتا حـديثا
في طبعـة جديدة
عن دار الآداب